من الخزانة الشرقية

بقلم حبيب زيات

أَثَر أُنف[1]

«نسخة قصة وردت الى الابواب الشريفة السلطانية الملكية اينال من المسلمين القاطنين لشبونة»

بتاريخ اوائل ربيع الثاني سنة ٨٥٨ (نيسان ١٤٥٤ م)
في التماس السماح للنصارى باعادة ما تهدّم من بناء كنيسة القيامة وسائر الكنائس

لكنائس بيت المقدس وديراته في الاسلام، ولاسيما كنيسة القيامة العظمى تاريخ لم يكتب بعد، او لم تُستوفَ فيه كل اخبارها بالاستناد الى الاصول الاسلامية والنصرانية معاً. ولا مراء ان اولى الناس بالعناية بهذا التاريخ والتوفر على تدوينه واستقصاء انبائه هم الرهبان الفرنسيسكان الذين تقلدوا حراسة الاماكن المقدسة منذ القرن الثالث عشر. وعاينوا كل الوقائع التي تتابعت عليها في ايامهم. وقيدوا في سجلاتهم معظم الحوادث التي مرت بهم اثناء دولة المماليك الى مجيء الاتراك العثمانيين في القرن السادس عشر. فكانت خزائنهم في القدس حافلة بالشهادات والمستندات المعاصرة لتلك الازمنة، مشتملة على الآثار والكتابات التي تمثل صورها وروايتها اصدق التمثيل. ولكنهم كانوا دائماً

---

١) يقال روضة أُنُف كمُنُق لم تُرعَ بعد. وكلأ أُنُف اذا كان بحالهِ لم يرعهُ احد. ومنهل أُنُف لم يُشرب قبل. وخمر أُنف لم يُستخرج من دنّها شيء قبلها. (اللسان ١٠: ٣٥٦، والتاج ٦: ٤٧-٤٨). وقد اخترنا هذا اللفظ في تعريب كلمة inédit اي ما لم يُطبع او ينشر قبلاً لما بين المشيين من الجامع والصلة. وكان الأولى ان نقول «اثر غميس». والغميس في اللغة «الذي لم يظهر للناس ولم يعرف بعد ومنه قولهم «قصيدة غميس» (التاج ٤: ٢٠٣). واغا آثرنا الاستعارة الأولى لخفة اللفظة ورشاقتها وصلاحيتها ان تكون رديفاً للمعنى نفسهِ. وفي ذلك ما لا يخفى من التوسع والمرونة في اللغة.

يضنون باستخراجها و إذاعتها لمحذورات يحذرونها واسباب يكتمونها. ولذلك لما وقفنا على متن القصة[1] المشار اليها في العنوان . كان اقصى رغبتنا ان نعارضها بما اجتمع لديهم من نسخ الرسائل التي انفذوها في ذلك العهد الى رؤسائهم في اسبانية والبرتغال في الشكوى من عسف المماليك ونكباتهم المتوالية على المعاهد النصرانية . حتى اثاروا بشدة تظلمهم فيها حنق ملكَيْ قسطيلية والبرتغال على الاسلام. فتوعّدا كل رعاياهما من المسلمين باقفال الجوامع والمساجد او هدمها، اذا لم يكفّ سلاطين مصر عن جورهم واضطهادهم للمسيحيين. ولكنا حين قُدّر لنا زيارة القدس في العام الغابر علمنا باشد التحسر والاسف ان قسماً غير قليل من هذه السجلات والآثار الرهبانية قد تبدد وضاع ، او التهمته افواه النيران في الفتن والمحن التي كانت تهدد كل يوم وساعة باديار النصرانية وبيَعها في الدول المصرية . ومما فُقد خصوصاً كل الاوراق والدفاتر المتعلقة باخبار القرن الخامس عشر . وغاية ما وقفنا عليه هنالك من الاشارات وبعض التعليقات على موضوع القصة البرتغالية بضع روايات مطبوعة لبعض كتبة الرهبان وجدناها لا تتفق على نصّ ولا تاريخ واحد . فلم يكن لنا بد من الاجتزاء بها والاقتصار على معارضتها ونقدها في تذييلنا على الاثر الاسلامي

وقد وُفقنا للعثور على هذا الاثر في خزانة باريس في مجلد مخطوط رقم ٤٤٤٠ استوعب فيه جامعه طائفة صالحة من المكاتبات والقصص التي وردت على الديوان الشريف بمصر او صدرت عنه الى ماوك الاقطار. اختارها من اقلام اشهر الكتاب كالقاضي شهاب الدين ابي الثناء محمود ، وابن عبد الظاهر ، والصلاح الصفدي ، وابن فضل الله العمري ، وابن نباتة ، وتاج الدين ابن الاثير ، وكمال الدين بن العطار، ومحيي الدين بن قرناص، وكثيرين غيرهم. ونقل في اثنائها مراسلات وتقاريظ شتى من كتاب «قهوة الانشاء» لابن حجة الحموي . ومعظم هذه الكتابات السلطانية طريف لم يُنشر بعد . وبعضها لا يخلو من الفائدة للمؤرخ. وآخر تاريخ جاء فيها جواب السلطان قايتباي في ٧ جمادى الاول سنة ٨٧٣(١٤٦٨ م) على كتاب احد ماوك الهند المقام الجمالي محمود شاه ، في غرة

١) القصة في الدول المصرية مرادفة لاسم عرض الحال او العريضة في الدولة العثمانية

رجب سنة ٨٧١ (شباط ١٤٦٧) . ووردت قصة اهل لسونة في الورقتين ٥٨ — ٥٩ من هذا المجموع . وهو نُقل من اسم جامعه وعنوانه وتاريخ كتابته . واوله خطبة في سطرين اولها « الحمد لله مُنزل اللغات والكتاب » وتليها شهادة من انشاء القاضي شهاب الدين ابي الثناء محمود بتوقيعه وتوقيع عدة من الامراء والكتاب وذوي المناصب السلطانية قيل فيها :

« ان الامير شهاب الدين احمد السيفي البريدي سار على البريد في قوة الهواجر المشْطة وشدتها . وقِصَر الليالي المعينة على السَوْق وتقارب مدتها . الى الديار المصرية في يومين ونصف . وذلك انه ركب من دمشق المحروسة في ليلة الخميس رابع عشر جمادي الاولى سنة احدى وعشرين وسبعماية (١١ حزيران ١٣٢١) فوصل الى مصر المحروسة في ظهر يوم السبت سادس عشر الشهر المذكور . وكان له بذلك مزية على اقرانه . ودرجة لا يرتقي اليها الّا من جاراه في ميدانه . وسأل من علم ذلك ان يكتب له خطه بما علِمَه . وان يشهد له بما تحققه من هذه الحركة التي رفعت بين الاكفاء عَلَمه . » (١—٢)

ولا يخفى ما في مثل هذا الجلد الخارق من فضل السبق في حلبات البريد[1] . ولذلك اثرنا التنبيه على هذه النادرة ، ولو في غير موضعها هنا .

---

١) يؤخذ من رواية جمال الدين بن تغري بردي ، صاحب النجوم الزاهرة ، انه جاء بعد الامير شهاب الدين السيفي البريدي المشار اليه من برّز عليه في قطع المسافة بين مصر ودمشق في مدة يومين فقط . وكان قد ورد الخبر الى القاهرة في اوائل ذي الحجة سنة ٨٠١ (١٣٩٩م) ان ابن عثمان عزم على المسير الى البلاد الشامية . فانتُدب الامير سيف الدين سودون بن عبدالله الظاهري المعروف بالعيّار لكشف الاخبار . فخرج من القاهرة في ١٨ ذي الحجة ووصل دمشق في العشرين منه . قال ابن تغري بردي : وهذا شيء وراء العقل كونه يصل من مصر الى الشام في يومين (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة ليدن ، الجزء السادس ، الفصل الاول ، ص ١١)

ولما أرّخ وفاته في ٢٨ شوال سنة ٨١٠ (١٤٠٨م) قال : سُمي بالعيّار لانه خرج من ديار مصر في ليلة موكب ووصل الى دمشق ثم عاد الى مصر في ليلة موكب آخر على خيل البريد . ومعه دواداره الامير اسنبغا العيّاري . وهذا السير لم يُسمع بمثله فيما مضى من الاعصار من انه يقطع مسافة بريدًا في نحو اربعة ايام . وهذا اخبر مستفاض بين الناس يعرفه كل احد (الجزء المذكور ، ص ٣٨٥)

وقبل ان ننقل متن قصة مسلمي لسبونة لا بد لنا من البحث عن الاسباب والحوادث التي حملت الرهبان على الاستصراخ بملوكهم. وكان من عواقب هذا الاستصراخ التضييق على مسلمي الاندلس والبرتغال واكراههم على الاستغاثة في دورهم بسلطان مصر. وقد قلّبنا ما وسعنا تقليبه من كتب التاريخ الاسلامية فلم نجد من اشار بشيء الى وقائع سنة ٨٥٦(١٤٥٢م) باوسع مما ذكره مجيرالدين الحنبلي في كتابه الانس الجليل . قال في كلامه على السلطان الملك الظاهر جقمق :

« في ايامه جهز خاصكيًا اسمه اينال باي . وكان الساعي في امره الشيخ شهاب الدين بن ارسلان فحضر الى القدس الشريف برسوم الملك الظاهر بالكشف على الديارات وهدم ما استجد بدير سهيون وغيره وانتزاع قبر داود عليه السلام من النصارى . ونبشت عظام الرهبان المدفونين بالنبو الذي به قبر داود . وكان ذلك في يوم الاثنين ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ست وخمسين وثمانمائة (١٠ توز ١٤٥٢) وكان يومًا مشهودًا . وفي تلك السنة وقع البطش في النصارى فأُخذ المسجد من دير السريان وسُلّم للشيخ محمد المُسَّر وصار زاوية . وهُدم البناء المستجد بيت لحم وبالقيامة . وقُلع الدرابزين الخشب المستجد بالقيامة وأُخذ الى المسجد الاقصى بالتكبير والتهليل وكُشفت جميع الديارات وهُدم ما استجد بها . وكان ذلك في اواخر عمر السلطان بعد ان اصابه بالصاعات وازالة الديارات المكرات . »
(ص ٤٤٣-٤٤٤) .

ولا شك ان البطش بالنصارى وهدم ديراتهم وانتزاع قبر داود من ايديهم ونبش عظام موتاهم كان اعظم الاكبر الذي اثار تلك الشكاوى التي رنّ صداها في اندية الغرب وكان من رجع صداها تظلّم مسلمي الاندلس والبرتغال الى الملك الاشرف اينال . وهذا نص خطابهم له بعد تسديد ما تصحف فيه باقلام النساخ :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« الحضرة العلية التي جعل الله مثابة للناس وأمنا . ووسم وجود مطالعها الشريفة ومراقيه السنية المنيفة بركة ويُمنا . وعنيا بخصوصية سعادته الابدية والطافه الخفية السرمدية فكانت لها العاقبة الحسنى . وخصّها من مجاورة ارضها

المقدسة والقيام بحقوق بيته ذي الحرمات المعظمة بما احرز له بين ملوك الانام وخلفاء الاسلام المنصب الاشرف والمقام الاسنى. وجعل بدولتها جمال الايام. واعزّ بصولتها جوانب المسلمين والاسلام. ورضيها لكفالة الخلق. وايالة الحق. وآثرها من قوة القوائم. وشدة الصوارم. والفضل في إفاضة النعم. والعدل في سياسة الامم. ما ظهرت به لها مزية السبق. وسلّم القربُ الفضيلة للشرق. حضرة مولانا السلطان الجليل. الظاهر الظاهر النبيل. فخر الاسلام. حسنة الليالي والايام. ناصر الدين والملة. خاذل الطوائف المُضلّة. الحاتز في كرم الشيَم. وشيم الكرم. ما شاع به فضله. وانتشر له في الاقطار والامصار ما هو اهله. من اختاره الله لاغاثة الحجيج الى بيته الحرام. والى زيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام. محيي العدل في العالمين. فخر الملوك والسلاطين. خليفة الله في ارضه. القائم من الجهاد بسنّته وفرضه. صاحب الديار المصرية. والحجازية والشامية. مولانا السلطان ابنال جعل الله دولته غرة في وجوه الدول. واحيا بآثرها الكريمة آثار الملوك العظام الأول. وصرّف لها الليالي والايام (٨٧٥ ؛ ٥) تصريف من لديها من العبيد والخَوَل. وخلّد عمرها. وأعزّ نصرها. واعلى قدرها. وشيّد جمالها وفخرها. وادام على العباد امتداد ظلّها. ومهّد خلافتها المشتملة على ضروب المآثر والمفاخر كلها. سلام كريم تتأرّج تأرُّجَ الروض الانيق رغبةً بانه نفحاتُه. وتتألق تألُّق البدر المنير وسط سمائه صفحاتُه. وتنعطف انعطاف انعام الله عليكم رحماته وبركاته.

وبعد حمد الله الكبير الذي هو المولى ونعم النصير. حمداً كما يجب لجلاله. والصلاة والسلام الاكملان على سيدنا محمد وعلى آله. والرضى عن صحابته وعترته والدعاء لحضرة مولانا السلطان بدوام النصر والتمكين. والفتح المبين. فقد كتبه للمقام العليّ كتب الله له تجديد السعود. وتأييد البنود. وانجاز النصر الموعود. عبيدُكم الغرباء المساكين القاطنون بدين سيدنا ومولانا محمد عليه الصلاة والسلام. بين الكفرة وعبّاد الاصنام. يقبّلون بساطكم الكريم ويعرّفون المقام العلي زاده الله علواً وشرفاً ان العبيدَ اهلُ ارض لشبونة وما يليها من البلدان. وكان النصارى خذلهم الله تعالى حين اخذوا تلك البلاد من ايدي المسلمين في الزمن الاول. كما شاء الله ربنا وقدّره. وسبق في سابق علمه. منعوا من استولوا عليه

من المسلمين من اسلافنا من الخروج. وابقوهم على دينهم يقيمونه على ما ينبغي. يؤذنون ويصلّون. ويفعلون من سُبُل الخيرات ما به الى ربهم عزّ وجلّ يتقربون. فرضوا بما قدّره الله وحكم به عليهم. وساقه قضاؤه الحتم اليهم. وخلفناهم نحن من بعدهم كذلك. وجعل سبحانه وتعالى بقاءنا هنالك. رحمة لاسرى المسلمين. واعانة للضعفاء. المقهورين. تعذوهم ونستر على هاربهم ونبلّغه مأمنه. مع اننا اعزكم الله في الاقامة بتلك البلاد مكرهون مقهورون. ويودّ الرجل ان يترك جميع ما له ويخرج لارض المسلمين. فلا يجد لذلك سبيلًا. وقد وقعت بنا في هذه المدة مصيبة عظمى وداهية دهما. وذلك ان قسيسي القمامة ورهبانها الساكنين بارض بيت المقدس. بعثوا لهذا الرومي صاحب بلاد البرتقال الذي نحن في ارضهم. انهم في غاية الضيق وان القمامة التي هي شرفهم وشرف سلفهم ومقصد (٢٥٥٥٥٥٥٥) حجهم تهدمت وان المسلمين منعوهم من بنائها وبنا. ما هُدم لهم من كنائسهم. بل انهم بدلوا بعض كنائسهم مساجد. واستصرخوا به واستنهضوه ان يفعل هو بنا كما فُعل بهم هنالك. وامروه ان يهدم مساجدنا. ويمنعنا من اقامة ديننا. ويوقع الضرر بنا. فبعث لنا السلطان المشار اليه بما ذُكر. وامرنا ان نبعث اليكم بهذا الخبر ونرغب اليكم في كشف هذا الذي نزل. والا فهو يوقع بنا ما وقع بهم. فاجتمع من هنا من المسلمين وتضرّعوا الى رب العالمين. واتفقوا ان يرفعوا هذا الامر اليكم. ويوقفوا تفريج كربتهم هذه عليكم. اذ ديننا واحد. وهو كجسم ان اشتكى منه عضو واحد تشاكى جميعه. واجتمع من في عمالته من المسلمين. ولجأوا الى الله متضرعين. وبسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم متوسلين ومتشفعين. ان يكشف سبحانه على يدكم كربتهم. ويرحم غربتهم. فاختارنا من بيننا رجلين من القرآن العظيم. ومن ذوي الحسب الصميم. وهما الفقيه ابو العباس احمد بن محمد الرعيني. والفقيه ابو عبدالله محمد بن احمد الونداجي. ووجهناهما الى حضرتكم الشريفة برسالتنا وفي تبليغ قصتنا.

وليس القصد ادام الله ايامكم ونصر الويتكم المظفرة واعلامكم. ان النصارى الذين تحت ايالتكم. وفي قطر عمالتكم. تمكنوهم مما لم يُمكّنوا منه قبل مما لم تجرِ به عادة. او يُزادوا في طريقتهم التي (ليس) عليها زيادة. ولا ان

تسمحوا لهم ببناء ما هُدم . وتعمير ما بهم عُرف وعلم . وانما بغيتنا منكم ان تأمروهم ان يكتبوا لسلطانهم الذي كتبوا له اولًا ان لا يتعرضنا في مساجدنا. وان لا يمنعنا من اقامة ديننا حيثما وقع الصلح بين اسلافهم واسلافنا . وانه اذا اوقع بنا شيئاً يقع بهم اضعافه . حتى تحسن عشرته معنا . ونأمن في سربنا . ونقيم ديننا على عادتنا من اظهار الاذان في الصوامع . ومراظبة الجماعة في المساجد والجوامع . وهم يزعمون ان القيامة هذه بها ولد عيسى المسيح . وان القيام بشأنها عندهم هو الدين الصحيح . وان الصلح وقع على ابقائها كذلك مع عمر بن الخطاب ووافق (على) ذلك من جاء بعده من الاصحاب . رضي الله عن جميعهم . وجعلكم (٥٩٣٥ ٢٥) وايانا في بركة شفيعنا وشفيعهم . فنخشى ايدكم الله ان استمروا على هذا المنع من هذا الذي طلبوا من بناء هذه القيامة . ان يضيقوا علينا في المسالك . ونهلك مع من هو هالك . وتُهدَم لنا المساجد . وينقطع منا الراكع والساجد . ويصل الضرر الى جميع هذه الطائفة الاسلامية . الساكنين كما شاء الله في البلاد النصرانية .

وما يخفى ما فيها من المنفعة للمسلمين . والرحمة والاعانة للمأسورين . فكم فككنا من اسير . وسهلنا عليه من عسير . مع اننا لو وجدنا للخروج من البلاد سبيلًا . . رضينا المقام بها بذلك بديلًا . لكن الرضى بما قدّره ربنا وقضاه . وانفذه فينا وامضاه . فله الحمد على كل حال . والشكر على ما اراد بنا من ضرّ او افضال . فالعبيد لجأوا الى فضلكم . وتشفعوا اليكم بنبيهم ونبيكم . في تفريج ما نزل بنا من هذه الطامة . والمصيبة التي هي للمسلمين بهذه البلاد عامة . والله سبحانه يديم مقامكم الكريم نصر اللواء . وقهر الاعداء . ويعرّفه في كل مقام يرومه يُمن الاعادة والابداء . والسلام الاتم الكريم يخص مقامكم العلي ورحمة الله وبركاته .

تاريخ اوائل شهر ربيع الثاني الذي من عام ثمانية وخمسين وثمانمائة . عرفنا الله خيره بمنه ».

وبين هذا النص الصريح ورواية الرهبان الفرنسيسكان تناقض واختلاف في حكاية الواقع وتعيين التاريخ . فقد زعم احد رواتهم ان الحادثة كانت سنة

١٤٥٩[1]، وجعلها غيره سنة ١٤٦٠[2]، وذكر آخر انها سنة ١٤٦٨[3] بدلًا من ١٤٥٩ اي ٨٥٨ للهجرة وهي السنة التي وردت مضبوطة بالحرف لا بالرقم في قصة لسبونة . ومعلوم ان الملك الاشرف سيف الدين ابا نصر اينال العلائي تولى السلطنة في ٧ ربيع الاول سنة ٨٥٧ (١٨ اذار ١٤٥٣) فتكون القصة رُفعت اليه بعد سنة وشهر من سلطنته . وقد سكت المؤرخون المصريون عنها وعن جوابه عليها . فلا ندري ما رسم به بشأنها . وانفرد الرهبان الفرنسيسكان بالقول ان ملك قسطيلية هنري الرابع كان امر بتدمير الجوامع والمساجد في كل مملكته اقتصاصاً لما تم على كنيسة دير صهيون وسائر الكنائس والاديار في القدس . وتهدد بطرد المسلمين في بلاده . وهم يبلغون ثمانمائة الف . فخشي سلطان مصر تفاقم الخطب ، وامر باعادة دير صهيون الى اربابه الفرنسيسكان . وهذ تعريف تاريخ الرهبانية ، وقد لخص فيه مؤلفه اهم حوادث دير صهيون قال:

« كان اليهود سنة ١٤٢٩ قد طمعوا في علّية صهيون بدعوى انهم احق بها لوجود قبر النبي داود فيها . واعانهم المسلمون لانهم كانوا يعدّون داود من اعظم الانبياء . وطردوا من الدير الفرنسيسكان . فاضطرّ حارس جبل صهيون فرا جان دي بلور (Fra Jean de Bélor) ان يتوجه الى مصر ويتظلّم الى السلطان الاشرف سيف الدين برسباي ويطلعه على تواقيع سلفائه باثبات الدير للرهبان الاصاغر . واهدى اليه كيساً مفعماً من الذهب هدية من البابا وملكة نابولي جانّ الثانية . فانصفه السلطان .

ومضى على الرهبان ثلاثون سنة وهم متمتعون بحيازة الدير المستعاد . حين فاجأهم اعداؤهم بالسلاح سنة ١٤٥٩ في ايام الملك الاشرف اينال واخرجوهم من الدير ثانية . ولم يستطع وقتئذٍ حارس الدير فرا برتلمي دي كول (Fra Barthél-

1) *Histoire Universelle des Missions Franciscaines* d'après le T. R. P. Marcellin de Civezza, tome III, Paris, 1898, pp. 227-229.

2) Fr. Yvan de Calahorra, *Chronica de la Provincia de Syria y Terra Santa*. Madrid, 1684, pp. 284-285.

3) Fr. Samuel Eijan, *Espana en Tierra Santa*. Barcelone, 1910, p. 35.

(my de Colle) ان ينطلق الى مصر ويطالب بحقوق الرهبان القديمة . فلم ير الرهبان بدًّا من الانتقال الى منزل مجاور كانوا فيه عرضة لتعديات القوم . وارشكت هذه الحال ان تطول بهم لولا حادث طرأ كانت عاقبته خيرًا للنصارى . وانتهى به كل مشكل . وذلك ان هنري الرابع ملك قسطيلية وقف على ما كان . وامر للحال بهدم جانب من المساجد التي كانت في بلاده وتهدد المسلمين ان يخرب باقيها ان لم يتوسطوا لدى سلطان مصر وينالوا منه كشف ظلامة الرهبان الاصاغر في الارض المقدسة . فاستاء مسلمو الاندلس للاهانة التي لحقت بهم بتخريب بيوت الصلاة . ورفعوا قصة الى ملك مصر سألوه فيها ان يُحسن الى الرهبان ويُرجع لهم حقوقهم . فتلقى السلطان عريضتهم بالقبول . ورسم لنائبه في القدس ان يطرد اليهود من علية صهيون ويعيد اليها الفرنسيسكان . »[1]

وبين هذه الرواية واقوال غير واحد من كتبة الفرنسيسكان مباينات ومناقضات شتى ذكرنا بعضها في تأريخ القصة ، وان السنة الصحيحة كانت ١٤٥٤ وليس ١٤٥٩ او ١٤٦٠ او ١٤٦٨ . واكبر دليل على ذلك ان العريضة المرفوعة لسلطان مصر اينال كانت في شهر ربيع الثاني من عام ٨٥٨ وهي توافق ١٤٥٤ للمسيح . فلا ندري اين وجد الرهبان كل هذه السنين الموهومة . واقدم من روى الحادثة منهم فرا سوريانو وقد ادرك زمانها لانه ولد سنة ١٤٥٠ . ولم يعين في روايته اية سنة كانت ولا اسم ملك قسطيلية الذي شيد وقوعها . وزعم ان الملك لما علم الظلم الواقع على الرهبان « امر بتخريب مساجد المسلمين التي كانت في بلاده . ولم يستثنِ منها سوى جامع طليطلة وآخر معه . وبعث يقول للسلطان بواسطة المسلمين الذين كانوا في جملة رعاياه انه اذا اصرّ على ظلم رهبان جبل صهيون فيما بعد يأمر هو بقتل نيف عن ثمانمائة الف من المسلمين الذين في حكمه . »[2] ولا يخفى ما في مثل هذه الدعوى من المبالغة والتهويل .

1) P. Marcellin de Civezza, *op. cit.*, t. III, pp. 227-229.

2) Fra Suriano, *Trattato di Terra Santa e dell'Oriente*. Edition P. G. Golubovich. Milan, 1900, p. 111.

وقد تقدم من لفظ مسلمي لسبونة ان التوعد بإخراب المساجد اقتصاصاً لما كان من إخراب الكنائس في القدس لم يتجاوز حدّ التهديد ولم يتم في الواقع. ومن الغريب ان تكون مثل هذه الكائنة في اسبانية والبرتغال ويتناول الهدم كل المساجد والجوامع فيها على كثرتها وانتشارها ، ولا يدري بها او يشير اليها احد من مؤرخي القطرين ولا يبقى لها اقل اثر في كتابات ذلك العصر . ومما يريب ايضاً في صحة هذه الحكاية كما حدّث بها الرهبان انهم اغفلوا كل اشارة الى توسط ملك البرتغال في ذلك العهد وهو الفنس الخامس (١٤٣٨–١٤٨١) ولم يذكروا بحرف عريضة رعاياه مسلمي لسبونة ، رغبةً منهم دون شك في نسبة الفضل الى ملك قسطيلية وحده. وكان معظمهم من بلاده . ولذلك لم يتحرّجوا من المبالغة والتعظيم . ومن اكبر فوائد القصة التي وُفّقنا لوجودها ونشرها ان تُعين على دفع هذه الاوهام واثبات الحقيقة . وحبّذا لو توفر احد الرهبان الافاضل في القدس على البحث في سجلاتهم وآثار اسلافهم . لتعريف اخبارهم الصحيحة وما تعاقب عليهم وعلى اديارهم من المغارم والمظالم في دولة المماليك . انتقادها ومعارضتها بما قد يكون ورد عنها في الاصول الاسلامية .

دير رمّانين في ضواحي حلب

قال الخالدي في كتاب الديارات ، فيما رواه عنه شهاب الدين العمري : «هو دير بالشام . ولا ادري في اي ناحية هو منها . ولكن قيل انه دير كبير حسن عامر .» وحكى على الاثر أسطورة دخول عمر بن الخطاب انطاكية ، وخروجه منها ، بعد قتل احد بطارقتها . والتجائه في طريقه الى دير أضافه فيه الراهب . ولما عرف اسمه اخرج كتاباً عنده وتصفحه . وهو يتصوّب النظر ويصعّده في عمر . ثم وثب اليه ، وقبّل رأسه . وسأله عن ظهور محمد . وتنبأ لعمر انه يملك الارض ويُخرج هرقل من الشام . والتمس منه ان يكتب له في قطعة من أدَم كتاباً أملاه عليه في ترك خراج الدير والوصاة به .[1]

(١) مسالك الابصار للعمري ٢٤٣ – ٢٤٤

ويُستدلّ من هذه الحكاية ان الخالدي كان يعتقد ان هذا الدير كان دير رمّانين ، ولو لم يصرّح بذلك. ولا شك عندنا ان كل هـذه القصة موضوعة لتصحيح الكتاب الزور ، رغبةً من الرهبان في اعفاء الـدير من الرسوم والتكاليف. وفي الديارات نظائر لهذه الوصاة والمسامحة اذا تدبّرها اليوم المنتقد تتجلى له في اكثرها امارات الشبهة والاختلاق.

وقد اغفل ياقوت الرومي ايضاً تعيين موقع الدير. واقتصر عـلى القول انه كان يُطلّ على بقعة سرمد. ولكنه نسي ان يعرّف ، في كلامه على سرمد ، اين كانت بقعتها بالضبط . و لم يزد على انها موضع من اعمال حلب ، كعادته كثيرًا في عدم النصّ وايثار الابهام. ويؤخذ من عبارة لابن الشحنة في تاريخ حلب ان سرمد كانت بالقرب من البلاط[1] . وفي ياقوت ان البلاط هي مدينة كورة الحوّار ، كانت قديماً بين مرعش وانطاكية[2] . وفي كل ذلك من الخفاء والغموض مـا لا يخفى. ومن الغريب ان ياقوت لم يخطر له ان يبحث عن رمانين التي انتسب الدير اليها. فلم يذكرها البتة في بابها. وعنده ان الدير كان يُسمّى ايضاً دير السابان[3] . والصحيح ما حكاه ابن العديم في كتابه المخطوط «بغية الطلب في تاريخ حلب» ان دير رمانين في جبل سمعان من اعمال حلب. قال : والقرية تُعرف اليوم في زمننا (١١٩٢ — ١٢٦٧م) بترمانين[4] . واشار تبـلًا الى دير سابان الى جانب دير عمان من جبل سمعان غربيّ حلب[5] ، ولم يقل انه هو دير رمانين

ومع ان دير رمانين كان بعيدًا عن حلب ، يعزل في الجبل عن كل مجتمع ، لم يسلم ابدًا من آفات تطرّح ارباب اللهو والبطالة فيه. لوقوعه في احسن موضع وانزهه. فلم يبرح مقصدًا للمتطرّبين ، ومألفاً لعشاق الخمور النصرانية. فكان في آن واحد مزارًا للنصارى ودارًا للسكارى ، حظّ اكثر الديارات في الاسلام.

١) الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ٣١٧

٢) معجم البلدان (طبعة اوربة) ٤ : ٧٠٩ و ٣ : ٢٥٤

٣) معجم البلدان (طبعة اوربة) ٣ : ٦٦٣ و ٦٦٦

٤) خزانة بريتش موزيوم Add. 23354, f° 162 — 163 . وفي الاصل المخطوط : « تعرف . . . بترمانين »

٥) خزانة بريتش موزيوم Add 23354, f° 97

ومما انتهى الينا من الخمريات التي قيلت فيه ابيات للواله الشاعر من اهل الشام. نقلها لنا ابن العديم من كتاب الديرة المفقود لابي الحسن السميساطي ، وهي:

ألِف المقام بدير رمّانينا	للروض إلفًا ، والمدام خدينا
والكأس والابريق يُسبل دمعه	ويداه تجني الورد والنسرينا
يندو ، اذا الناقوس ايقظه ، على	عذراء أوطنت الدخان سنينا
بكر ، اذا ما الهمّ عاين كأسها	يومًا ، رأى في ما يرى السكينا
ومن العجائب مسكة ترضى بأن	تختار قارًا في اللباس ، وطينا
ويطارح الطنبور ، طول حياته ،	حتى كأنّ عليه فيه يمينا
هانت على طرماتهِ عذّاله ،	لما اشترى الدنيا ، وباع الدينا
عُمر(١ هو البلد الحرام،فكم ترى	فيه الندى ، والتين ، والزيتونا(٢

وكان الدير في ايام ياقوت الرومي (١١٧٨ - ١٢٢٨م) خراباً ، وآثاره باقية.

دير صليبا بدمشق

زيارة الخليفة المتوكل له . وقصته مع ابنة قسّ الدير

دير صليبا ، ويقال له دير السائحة ، ودير خالد — لان خالد بن الوليد نزل به حين حاصر دمشق — كان مقابل باب الفراديس من ابواب دمشق قديماً. وفي رواية البلاذري ان اهل هذا الدير اتوا خالداً بسلّمين وعليهما رقي بعض جنده الى اعلى سور الباب الشرقي ونزلوا اليه، وليس عليه الا رجل او رجلان وتعاونوا عليه وفتحوه(٣. « قال هشام: سمعت الوليد بن مسلم يذكر ان خالداً بن الوليد شرط لاهل الدير الذي يعرف بدير خالد شرطاً في خراجهم بالتخفيف عنهم حين اعطوه سلّماً صعد عليه . فانفذه لهم ابو عبيدة . »(٤ وفي قول الكلبي ان هذا الدير كان على ميل من الباب الشرقي(٥ .

---

١) العمر هنا يعني الدير

٢) بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم . جزء في خزانة لوندرة المذكور آنفاً .

٣) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة اوربة) ١٢١

٤) فتوح البلدان للبلاذري (طبعة اوربة) ١٢٦

٥) معجم البلدان لياقوت (طبعة اوربة) ٢ : ٦٥٧

ولا يُعلم من بنى هذا الدير قبل الاسلام . وكان بناؤه حسناً عجيباً في بقعة نزهة كثيرة البساتين والاشجار والمياه ، وارضه مفروشة بالبلاط الملوّن . والى جانبه دير ثانٍ للنساء الرواهب[1] . ويظهر ان جريرًا اراد هذين الديرين بقوله :

اذا تذكرت بالديرين أرّقني صوت الدجاج وقرع بالنواقيس

وروى البكري عن ابي الفرج الاصبهاني ان الديرين كانا ديري بطرس وبولس بنواحي بني حنيفة في ناحية الغوطة[2] . واستشهد الخالدي على ان دير صليبا كان يلي باب الفراديس بقول جرير في هذا الشعر :

فقلت للركب : اذ جدّ النجاء بهم ، يا بعد يبرين من باب الفراديس (٣

قال الشابشتي : وأنشدت فيه :

يا دير باب الفراديس المبجّ لي بلابلًا بقلاليه واشجاره
رمقتُ لي من مالي ومن نشبي بما أباكره من خمر خمّاره
لو عشت تسعين عامًا فيك مصطبحًا ، لما قضى منك قلبي بعض اوطاره (٤

« وحُكي ان الوليد بن يزيد كان كثير المقام في هذا الدير يخرج اليه ومعهُ حُرمه استحسانًا له . وانه كان يجلس في ايام مقامه فيه في صحنه كل يوم ساعة من النهار ثم يأكل ويشرب في مواضع منه طيبة حسنة . »[5]

ونظرًا لحسن موقع هذا الدير وجمال مُطلّه على جنان الغوطة ، كثر غشيان المتطربين له واقبال ارباب الشراب والقصف عليه شأنَ امثاله من الديارات في الاسلام . وفيه يقول ابو الفتح محمد بن علي المعروف بابي اللقاء

حبّذا أنت يا دير صليبا مبدعًا حسنه جمالًا وطيبا
حبّذا السفح يومًا ظللنا فيه شهرًا ، وكان امرًا عجيبا
شجر كالسوسن الرطيب ، ومياه جاريات ، والروض يبدو ضروبا
من بديع الالوان يضحي به الثا كل مما يرى لديه طروبا
كم رأينا بدرًا به فوق غصن مائس قد علا بشكل كثيبا

١) الاعلاق الخطيرة لابن شداد . خزانة بريتش موزيوم . لوندرة Add. 23335, f° 108
٢) معجم ما استعجم للبكري ٢٦٨-٢٦٩
٣) مسالك الابصار للعمري ٣٤٩
٤) الاعلاق الخطيرة لابن شداد . بريتش موزيوم
٥) مسالك الابصار ٣٥٦

وشربنا به الحياة مداماً تُطلع الشمس في الكؤوس غروبا
فكأنّ الظلام فيها نهار لشاها تسرّ منا القلوبا
لست انسى ما مرّ فيه، ولا اجـ ـمل مدحي الا الدير عليا (١

وفي هذا الوصف شاهد كافٍ بما كانت عليه بقعة الدير من الطيب والجمال بين رياض مونقة ومياه متدفقة في محلة دلّ عليها اسمها «الفراديس» اي الجنان.

ولما قدم دمشق المتوكل على الله الخليفة العباسي زار هذا الدير في جملة الكنائس والديارات الشامية. واغفل الراوي اسمه. وقد عثرنا على وصف هذه الزيارة في مطاوي مخطوط مجموع في خزانة بريتيش موزيوم في لوندرة، ولا نظنه الا أنفاً لم يستخرج بعد من سفطه وفيه من الطرافة والظرف ما حدانا الى نسخه ونقله هنا لغرابة روايته حدّث بها بعض بني حمدون عن بعض شيوخه، قال:

« كنت مع المتوكل لما شخص الى الشام. فعنّ له ان يطوف كنائس الزهاد والموضع المعروف بالفراديس. ثم قال انني كنت اسمع بطيب هذه المواضع. فقلت الرأي ما رآه امير المؤمنين فنزلنا منزلاً بين كنائس عظيمة وآثار قديمة ترتاح النفوس اليها ويشتهي من ينزلها ان لا يرتحل عنها فلما استراح من تعب الركوب استدعاني وقال: هل لك في الركوب. قلت كما يأمر امير المؤمنين. فاخذ بيدي ولم يزل يستقري تلك الكنائس والديارات ويشاهد ما فيها من عجائب الصور ويرى من (f.126 h) احداث الرهبان وبنات القسيسين وجوهاً كأنها اقمار على غصون. تتثنى في تلك الاروقة وتحدون. وكلما مرّ بناشئ منهم يقول لي: ويحك ترى ما نحن فيه؟ ما شاهدت مثل هذا قط. ثم خلونا براهب من قوام الكنيسة. فلم يزل المتوكل يسأله عن حال كل جارية وغلام يمرّ به واسمه ونسبه اذ لمح كتابة على حائط الكنيسة فقراءها واذا هي « حضر الغريب المشتّت الحزين. وهو يقول شتّت شملي بعد الألفة وشتّتي جسمي بعد التوفه. ومشيت من العراق الى هذا الروان. وارتحلت عنه في ذي الحجة سنة احدى ومائتين. وانا اقول

آل امري الى احسن الامور، وتبدلت كربة بسروري

(١ معجم البلدان ٢ : ٦٧٤

واعترتني من الزمان خطوب تتبارى في هتكة المستور
فنفس ، صبرًا لحادثات الليالي كل شيء بذلّ للمقدور »

فقال لي ويحك ترى ما اظرف حال هذا المسكين . وما احرق هذا الانين .

ومرّت به جارية ما رأت عيني لها شبيهاً وعليها جُونا (كذا) وبيدها مبخرة تبخر بها : فقال لها المتوكل تعالي يا جارية . فاقبلت بحسن ادب وكمال . فسأل المتوكل الراهب عنها فقال : ابنتي . قال : وما اسمها . قال : شمانين . فقال لها المتوكل : يا شمانين اسقيني ماء . فقالت : يا سيدي ماؤنا ههنا ماء الراهبات القذرات . ولست استنظف ماءهم ولا آنيتهم ولو كانت حياتي ترويك (a 127 r°) لجدت لك بها . ثم اسرعت فجاءت بكوز من فضة فيه ماء . فاومأ الي ان اشربه فشربت . واشتد عجبه بها وشهوته لها . فقال لها : يا شمانين ان هويتك تساعديني ؟ فتنفست ثم قالت : اما الآن فانا عبدتك . فاما اذا عرفت صحة حبك وتمكنت من قلبك فما اخوفني من حدوث الطغيان عند تمكن الشيطان . اوَما سمعت قول الشاعر :

كنت لي ، في اوائل الامر ، عبدا ثم لما ملكت صرت عدوّا
اين ذاك السرور عند التلاقي صار مني تجنباً ونبوّا

فطرب المتوكل وكاد يشق قميصه . ثم قال لها هبي لي نفسك اليوم حتى نشرب انا وانتِ فانا ضيفك . فقالت : على الرحب والسعة . ثم اصعدت بنا على علّية مشرفة على تلك الكنائس فرأينا منظرًا هالنا حسناً ثم مضت فجاءت باشياء من المأكول مستظرفات . وكأن المتوكل عاف ذلك لعزة الخلافة . فاستأذنها في احضار طعام فاذنت له . فاتونا بخروف مخشّر وسنبوذج واشياء قريبة المأخذ من طعام مثله . فاستظرفت ما جيء به واستهولت الآلة . وقطنت لامير المؤمنين فقامت قائمة بين يديه تخدمه وتكفّر له . فمنعها ثم جاء ابوها بشراب من بيت القربان ذكر المتوكل انه لم يرَ مثله قط . فشرب وشربت معه . فاستغفيت من حمى كانت لحقتني تلك الليلة فاعفاني . وسرّ بها ونظرها سروراً عظيماً تاماً . فلما اخذ الشراب منها قالت له : ياسيدي اغنيك من غنائنا على ضعف الصنعة ؟ فكاد يهيم وقال :

ان فعلتِ كمل الله ظرفك. (f° 127 b) فقامت فجاءت بشيء يستمونه هناك القيقارة (القيثارة ؟) وصرخت واندفعت تغنّي:

يا خاطبًا مني المودة، مرحبا سمعًا لامرك لا عدمتك خاطبا
انا عبدة لهواك، فاشرب واسقني، واعدل بكأسك عن خليلك، ان أبى
قد، والذي رفع السماك، ملكتني وتركت قلبي في هواك معذبا

فنعر المتوكل وقال: ويلكِ أميت انت. فانتبهت وعلمت انني اخطأت في ترك مساعدته. فاخذت رطلًا ولم ازل اشربه حتى لحقته ومضى لنا يوم كان في الايام فردًا. ثم ارغبها المتوكل فاسلمت وتزوجها. ولم تزل عنده حتى قُتل رحمه الله »

وفي حاشية على الهامش ما يأتي:

« ورأيت في بعض النسخ ان شحرورًا وقمريًا كانا يصيحان على اعالي اشجار بالدير فاصغى اليهما المتوكل. فلما تحققت اصغاءه اليهما انشدته هذه الابيات الاربعة:

وكأنما الشحرور راهب بيعة ألهاهُ طيب الوقت عن تزميره
جعلت له تلك الغصون مواسمًا يتنى في اغيله وزبوره
وكأنما القمري يندب شجوه بانينهُ وحنينه وزفيره
صبٌّ تجنب بلابل لما دنت منه ديار انيسه وسجيره

فاعجبه ذلك منها وزاد بها سرورًا ولها محبةً. ثم انه ارغبها الى ان اسلمت وتزوجها رحمه الله. »[1]

ولا يُعلم متى استولى الخراب على هذا الدير، وكيف خرج من ايدي اصحابه في اثناء الحروب والفتن والاطماع التي تنازعت دمشق وذهبت بمحاسنها واديارها وآثارها وعرّتها من معظم محاسنها ومفاخرها. قال العمري: « وهذا الدير اليوم لا عين له ولا اثر. وانما صار دورًا وابنية ومساجد ومدافن وهي بناحية محلة حمام النحاس والله اعلم. »[2]

---

١) الدرّ المنتظم من كل بحر وسفط، لجامع شتاتهِ محمد بن علي بن محمود الكاتب الدمشقي British Museum Add. 14908

٢) مسالك الابصار ٢٥٦

تفّاح دمشق

اجمع ارباب اللغة على ان تاء التفاح اصلية ، وخالفهم ابو علي الفارسي ، وكان فيما يظهر مغرماً بهذا الثمر الذي كان سبب معصية آدم ، فاحبّ ان يجمع له بين طيب الاسم وطيب الجسم ، ولو بالقلب والابدال والشموذة في اللغة . فقال: « اخطأ من جعل التاء اصلية . وبابه ان يكون في (ف و ح) فيكون اصله من الفُوح بضم الفاء وهي الرائحة الطيبة فقلبت فاؤه عيناً وعينه فاء فصار عُفَّالا وفُفَّاحاً . فابدلوا من الواو تاء فقالوا تفاح كما ابدلوها في تُكاء وتُجاه ».[1]

كذا املى ابو علي من علمه . فمن شاء فليؤمن ومن شاء كفر .

ومن التفـاح اصناف عدّ منها البدري في كتابه « نزهة الانام في محاسن الشام » ما يأتي : سكري . مسكي . فتحي صيفي[2] . فتحي شتوي . بلدي . قاسي . فاطمي . قحابي . فضي . حديثي . جنابي . جرستاني . حلواني . دمشاوي . اخلاطي . قصري[3] . بربري . نبطي[4] . ماوردي . بطيخي (ص ٢٠١)

وقد بقي من هذه الاصناف بقية بدمشق وقراها منها السكري . والبلدي . والفاطمي ، وهو قليل . والفضي . والجناني . والدمشاوي ، ويقال له اليوم الدرشاوي . والاخلاطي او الخلاطي . والبطيخي . ومنها ما تغير اسمه او استُحدثت زراعته . وهي السكارجي . والهاماني ، نسبة الى قرية الهامة . والشامطي . والناعم ، وهو الذي

---

١) كتاب سمر السُمّار في ليالي الاقمار في اوصاف ثمار سائر الاشجار ، خزانة اكسفرد M. S. Sale 7° f° 12-13

٢) في الاصل المطبوع فتحي صبي بالنون ، وهو غلط ورد ايضاً في مخطوط باريس رقم ٢٣٥٣ ، والرواية الصحيحة في جزء من التذكرة للسعدي في خزانة بريتش موزيوم Add 7415 f° 228

٣) لم يذكر هذا الصنف في النسخة المطبوعة . وانا اغفناه نقلاً عن نسخة باريس المخطوطة .

٤) قال ابن طولون الصالحي في « ضرب الخوطة على جميع الغوطة » في كلامه على جرسا الزيتون : « واليها ينسب التفاح النبطي » .

يُنادى عليه بدمشق « مال الزينبية يا ناعم » . وغالب هذه الاصناف يجيء في قرية الزبداني بين حلو ومرّ وحامض . ومنها ما هو معروف فيها برياه وانتشار عرفه ، ولذلك قيل : « من عاشر الزبداني فاحت عليه روائح التفاح » .

واشهر التفاح الدمشقي بطيب الطعم والرائحة ورواء المنظر النوع المسمى بالفتحي . ولذلك كان يُحمل كثيرًا الى مصر على ظهور الجمال . وكان الاقباط يهادون رؤساءهم في ليلة الغطاس بالحلويات والفواكه وبينها التفاح الفتحي[1] . ومن الابيات التي تغنّى بها المغنون في القرن السادس للهجرة قول ابي فراس السلمي الدمشقي المعروف بالبديع :

يا نسيماً هبَّ مكّا عبقا هذه انفاس ريّا جبلقا
كُفَّ عني ، والهوى ما زادني برد انفاسك الا حرقا

في ثلاثة ابيات اخرى . قال بعضهم : مررت يوماً ببعض شوارع القاهرة وقد حضرت جمال كثيرة حولها تفاح فتحي من الشام . فعبقت روائح تلك الحمول . فأكثرتُ التلفت اليها . وكانت امرأة سائرة امامي ، فظنت لما داخلني من الإعجاب بتلك الرائحة ، فأومأت اليَّ وقالت : « هذه انفاس ريّا جلقا » .[2]

ويغلب في التقدير ان هذا التفاح الفتحي هو الذي كان يُحمل الى بغداد والعراق . قال النويري : « من خصائص الشام التفاح الذي يُضرب به المثل في الحسن والطيب . وكان يحمل منه الى الخلفاء كل سنة ثلاثون الف تفاحة . »[3] وورد مثل ذلك في لطائف المعارف للثعالبي (ص ٩٥) وعنه نقل النويري . وزاد الثعالبي في كتاب آخر له ان الثلاثين الف تفاحة كانت تؤخذ من اصل خراج اجناد الشام[4] ، والى ذلك اشار الصنوبري بقوله :

ارى الشام جاد تفّاحه لنا ، والعراق بأترجه

ولابن رشيق القيرواني في وصف تفّاحة :

---

١) بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن اياس ١ : ٥١

٢) الوافي بالوفيات للصفدي في خزانة اكسفرد ، الجزء الرابع عشر Seld. Arch. a. 24 . f° 97

٣) نهاية الارب ١ : ٢٤٤

٤) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ، مطبعة الظاهر مصر ١٩٠٨ ، ٤٢١ - ٤٢٢

تفاحة شابّة من كف ظبي غزل
ما خُلقت ، منذ خُلقت ، لغير تلك القُبَل
كأنما حمرتها حمرة خدّ خجل

وكان التفاح الشامي ، حيثما وجد في العراق ، في اول ما تُزيّن به الموائد والولائم . ويُقدّم بين ايدي الزوّار والمدعوّين . حكى المسعودي ، بإسناده الى عبد الرحمن العتبي ، قال : « دخلت على محمد ابن جعفر (والد علي بن محمد بن بسام) . . . فما جلست واستقر بي المجلس حتى اتوه بمائدة جزع لم أرَ احسن منها . . . وقمنا من فورنا الى موضع الستارة ، فقُدّم بين ايدينا إجّانة صيني بيضاء قد عُبّي فيها التفاح الشامي . قدّرنا مقدار ما حضر منها الف حبّة ».[1]

وفي جملة الاعياد الخليفية الباهرة التي اتصل بنا وصفها ، وتمثلت فيها أبّهة الخلافة وعزّتها ، إعذار المعتز ابن المتوكل على الله . جلس له الخليفة في الايوان بعد ان فُرش ببساط ابريسم مُذهب قُوّم في اوسط القيم بعشرة آلاف دينار ونثر الذهب واجلّع على المدعوّين . وكان في صحن الدار بين يدي الايوان « الف نبيجة (نبيّة اي سفرة خوص) فيها انواع الفراكه من الأترج والنارنج على قلّته كان في ذلك الوقت والتفاح الشامي والليموه »[2].

والاطباء في خواص التفاح الشامي آراء واعتقادات يطول شرحها . ومنهم حنين بن اسحق العبادي « كان ، اذا انتبه من نومه ، يشرب اربعة ارطال شراباً عتيقاً ، فاذا اشتهى الفاكهة الرطبة أكل التفاح الشامي والسفرجل وكان ذلك دأبه الى ان مات »[3].

ولا نظنّ ان احداً من عشّاق التفاح الشامي بلغ مبلغ احمد بن ابرهيم ابن ايوب المسوحي في التهوّس به . قيل انه « كان يحجّ بقميص ورداء ونعل خلق ولا يحمل معه شيئاً لا ركوة ولا كوزاً . الا كوز بلور فيه تفاح شامي يشمّه

١) مروج الذهب ، حاشية فتح الطيب ٣ : ٤٠٤ ؛ وحاشية الكامل لابن الاثير ١٠ : ١٢٨
٢) كتاب الديارات للشابشتي ، نسخة برلين ، ٦٤-٦٦
٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ١ : ٢١٠

من جوف بغداد الى مكة »[1].

وفي ضدّ ذلك كان هشام بن عبد الملك بن مروان يكره ان يرى التفاح او يتمتع بطيبه على كثرته بين يديه . زعموا انه « رأى في منامه ان طبقاً فيه تفاح قُدِّم اليه فأكل منه تسع عشرة تفاحة وبعض أخرى . فسأل عن ذلك . فقيل لتملك تسع عشرة سنة وكسراً . فكان لا يُقدَّم اليه التفاح في خلافته ولا يراه »[2].

ومن الغريب انه لم يشتهر قسط في الشام شيء من خمر التفاح على توفّره ورخص اثمانه ، وهي الخمر المعروفة في اوربة باسم السِدر (cidre) ويظهر انها كانت تُتخذ احياناً في العراق . ومن الشاهد عليها قول الشاعر :

ايُّ نور تديره الاقداحُ ! نور دنّ غذاؤه التفاح[3]

وهي اشارة صريحة الى اختمار عصير التفاح في الدنّ .

وقد سبق الشرقيون اهلَ الغرب الى الكتابة او التصوير على التفاح ، وهو في اغصانه . واكثر ما كان يُكتب على التفاح الاحمر بالابيض ، ولهم في ذلك طريقتان : الاولى ان يُعمد الى التفاح ، وهو اخضر قبل نضجه ، فيُكتب عليه بالمداد ويُترك الى ان يحمرّ على الشجرة . ثم يُمسح المداد فتخرج الكتابة ظاهرة ليس بها اقل حمرة لاستتار ما تحتها عن حرارة الشمس[4] . والثانية ان يُنقش في الورق ما يُراد رسمه او كتابته ، وتُلصق الورقة على التفاحة إلصاقاً محكماً ، وتُترك الى ان تبلغ الشمرة وينضج قطافها ، فتُنزع عنها الورقة ، ويظهر ما تحتها اصفر بلون مخالف للون الثمرة نفسه تعرّضه لنور الشمس[5] .

---

١) الاول من تاريخ بغداد لابن ابي طاهر بن الفتح البنداري ، خزانة باريس رقم ١١٥٢ ص ٤

٢) جزء من المنتظم لابن الجوزي ، خزانة اكسفرد Poc. Or. 233 f° 54b

٣) السادس من كتاب سمار لاحمد بن ابي طاهر ص ٢٠٣

٤) فريدة العجائب لابن الوردي ، مصر سنة ١٣١٦ للهجرة ، ص ١٢٨

٥) سمر السمّار في لباس الاثمار . المذكور آنفاً في خزانة اكسفرد ، ٢١

حارات دمشق القديمة

لشمس الدين بن طولون الدمشقي الصالحي

(٨٨٠–٩٥٣ هـ = ١٤٧٥/٦–١٥٤٦ م)

في جملة مصنفات ابن طولون العديدة كتاب « التشع بالاقران بين تراجم الشيوخ والاخوان » ألحق به قبل وفاته ذيلاً دعاه « ذخائر القصر في تراجم نبلاء العصر » ، ومات ولم يبيّض مسودته . وقفنا منه على نسخة رقم ١٤٢٢ في الخزانة التيمورية ، منقولة عن مسودة المؤلف بتاريخ ختام شهر جمادى الآخرة سنة ١١٣٨ (١٧٢٦ م) ولا تخلو من بعض مواضع التبست قراءتها في الاصل ، وتصحفت على الناقل فأساء كتابتها وتصويرها .

واهم تراجم الكتاب ترجمة ابرهيم بن اسمعيل بن يوسف العكاري الصالحي المولود في مدينة نابلس سنة ٨٧٠ للهجرة (١٤٦٥/٦ م) روى ابن طولون حديثاً جرى معه ذاكره فيه بحارات دمشق القديمة . فآثرنا ، خدمةً لتاريخ دمشق ، ان نسردها عنه كما حكاها ، بعد رقمها . وهذه اول مرة تُنشر على هذا النحو مجموعة . قال بلفظه :

« تذاكرت انا واياه حارات دمشق القديمة فقلت له :

داخل باب الجابية

١ حارة الفسقار . ٢ حارة البزورية وتعرف قديماً بسوق القمح . ٣ حارة ماذنة الشحم وتعرف قديماً بعقبة الصوف . وقبليها ٤ حارة الحاطب . وشرقيه ٥ حارة درب البقل . ورايح منه ٦ حارة مسجد البيع . ولم يكن في الصف الشمالي مسجد غيره من باب الجابية الى باب شرقي يوجه الى القبلة . قيل ان الصحابة بايعوا فيه . وهو الآن مدرسة بناها الخواجا محمد بن يوسف القاري سنة ٨٨٧ (١٤٨٢ م) وبنى الى جانبها داراً عظيمة . وقبليها قاطع الطريق العظمى الآخذة الى باب شرقي قيسارية وداراً اخرى عظيمة . وكذلك بنى ابن عمه علي ابن عيسى القساري عدة دور على تلّ ماذنة الشحم حارة جامعة بسجد . وعدة

حواصل . وخان حرير . وما مات حتى افتقر واستعطى . وكذا بنى ابن اخيه عبد القادر دارًا عظيمة بالغ في اتقانها . وبنى ابوه حماماً كان بتلك المحلة . وحارته قديمًا تُعرف بدرب الريحان .

ثم في شرقي ما ذكر ٧ حارة الكشك وكان فيها آثار جامع باعمدة وماذنة . نقلوا الجميع الى عمارة الجامع الاموي بعد حريقه سنة ٧٧٤ (١٣٧٢/٣ م) .

ثم شرقي ما ذكر الى جهة القبلة شمالي باب كيسان ٨ حارة القط . ثم شمالي عماير القاريين ٩ حارة الكنيسة . ثم شرقيها ١٠ حارة الشيطون .

داخل باب توما

١١ حارة المنجنيق (الجينيق) . ثم قبليها بغرب ١٢ حارة القيمرية . ثم غربيها بشمال ١٣ حارة الشلّاحة . ثم قبليها بغرب ١٤ حارة البدرانية . ثم قبليها ١٥ حارة الخضرا وبها القليجية لم يبقَ منها الا الواجهة . واراد سيباي نائب دمشق ان يخربها ويضمها في المدرسة التي بناها خارج باب الجابية فمنعه اهل الخير . وخلفها قبة فوق قبر الواقف . وكانت هذه القليجية مجتمع الفضلاء والعقلاء للاستشارة اذا دهم اهل دمشق امر مهم . وصارت حارتها اليوم تعرف ١٦ بحارة الهنود الشلبية . وهناك دور خلفاء بني امية . قيل انه ما تعرض احد لبنائها وافلح . ولقد رأينا بعض ذلك .

داخل باب السعادة

١٧ حارة الاندر

داخل باب الفرج

١٨ حارة الظاهرية

داخل باب الفراديس

١٩ حارة مسجد الراس

خارج دمشق

٢٠ حارة الغراوية خارج باب كيسان . وشرقيها ٢١ حارة الحمالين . وقرب تربة سيدي أبي رضي الله عنه ٢٢ حارة المخاضة . وشرقيها ٢٣ حارة القيشاني

٢٤ حارة الملّاح . ثم شماليها ٢٥ حارة الشيخ رسلان . ثم بقي في الزنجاري ٢٦ حارة عين الحنّة . وقربها ٢٧ حارة السبعة . وشرقيها ٢٨ الفرّايين . وشرقيها ٢٩ الشرش . ثم ٣٠ حارة العنابة . ثم ٣١ حارة بيت الاهة . ثم ٣٢ حارة حكر الاسية . ثم ٣٣ حارة شطرا (سطرا ؟) الغرب . ثم ٣٤ حارة بير الروبض . ثم ٣٥ حارة الجهنية . ثم ٣٦ حارة دار الطعم . ثم ٣٧ حارة عين اللولوة . ثم ٣٨ حارة بير الاكراد . ثم ٣٩ حارة السليماني . ثم ٤٠ حارة مرج الدحداح . ثم ٤١ حارة الجرن الاسود . ثم ٤٢ حارة الجاموسية . ثم ٤٣ حارة السميرية . ثم ٤٤ حارة حكر الجلال . ثم ٤٥ حارة باب الخوخه . ثم ٤٦ حارة ابن صبح . ثم ٤٧ حارة حضيرية شنتمر . ثم ٤٨ حارة سوق ساروجا . ثم ٤٩ حارة حمام العدد . ثم ٥٠ حارة الديلم . ثم ٥١ حارة السودان . ثم ٥٢ حارة خان الكججانية . ثم ٥٣ حارة حدرة ملكاس . ثم ٥٤ حارة البغيل . ثم ٥٥ حارة زقاق القصّاصين . ثم ٥٦ حارة خان الظاهر . ثم ٥٧ حارة عين دار البطيخ . ثم ٥٨ حارة زقاق الشعيرية . ثم ٥٩ حارة الشرف القبلي . ثم ٦٠ حارة حمام الناصري . ثم ٦١ حارة المنيبع . ثم ٦٢ حارة القصر . ثم ٦٣ حارة السلاوية (السلارية ؟) غربي جامع تنكز . ثم ٦٤ حارة جامع العداس . ثم ٦٥ حارة الحكر . ثم ٦٦ حارة جانبك الجفون . ثم ٦٧ حارة الهنكامة (البنكامة ؟) . ثم ٦٨ حارة القنوات . ثم ٦٩ حارة الخلخال . ثم ٧٠ حارة المزار . ثم ٧١ حارة الشويكة .

ثم رأيت على جزء ابي عبدالله الغضائري طبقة كتبت في ٧٢ حارة البلاطة بدمشق في مسجد بدر الدين .

ثم رأيت على جزء ابن حرب « كتبت في درب الدعوة داخل باب الصغير بدمشق . » وكذا أخرى في درب العجم بها . وأخرى في سوق الخشابين بها . »

الاعتراف او المكاشفة بالقبائح والذنوب

عند الصوفية

من تحرّى البحث في كتب الصوفية ، ونظر في مقالاتهم وفتاويهم ، وقايس بين مذاهبهم وطرائقهم ومصطلحاتهم ، وبعض ما تقدّم لرهبان النصارى من الاقوال والسنن والشرائع ، وجد احياناً من المحاكاة والمشابهة بين الطائفتين ما لا يخلو ان يكون مرتجلاً تواردت فيه الخواطر ، او مقتبساً قلّد فيه الاولُ الآخر. ومن وقف على قصيدة الششتري التي مطلعها :

تأدَّبْ بباب الدير ، واخلع به النعلا ، وسلّم على الرهبان ، واحطُطْ بهم رحلا

حكم لا محالة بالسبق للاوضاع النصرانية

وقد عثرنا في دار الكتب البلدية بالاسكندرية على مخطوط رقم ٢٠٥٥ — د بعنوان « درر الغوّاص على فتاوي سيدي علي الخوّاص » لعبد الوهاب الشعراوي، كتبه في ٧ رجب سنة ٩٥٥ ، وقال في مقدمته : « وبعد فهذه نبذة صالحة من فتاوي شيخنا وقدوتنا الى الله تعالى الكامل الراسخ الأمي المحمدي سيدي علي الخواص الذي سألته عنها مدة صحبتي له مترجماً عن معنى بعضها لكونه رضي الله عنه كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب فلسانه يشبه لسان السرياني تارة والعبري تارة . . . »

وتاريخ بعض هذه الاسئلة والفتاوي سنة ٩٤١ (١٥٣٤ م) فيكون المخطوط غير متأخر عنها الّا ببعض سنوات يسيرة .

وفي جملة هذه الدرر التي يُفاض فيه عليها فتوى جليلة الشان ناصعة البيان لا تتمالك من لذة ايرادها ، منقولة بالحرف الواحد لدلالتها على ما تقدم ، قال :

« سألته رضي الله عنه عن الخواطر القبيحة والشهوات الغالبة التي يُستحى في العرف من الإفصاح بها هل يصرّح بها المريد لشيخه او يكتمها عنه باللسان ويذكرها له بقلبه . فقال : الافصاح عنها اولى لانه لا عورة بين المريد وشيخه اذ هو طبيبه ولا يكلّف الشيخ بالمكاشفة عن حال المريد . هكذا درج الاشياخ من السلف حتى انهم سموا الكشف عن قبائح المريد كشفاً شيطانياً يتوبون منه ويستغفرون . وما كتم مريد عن شيخه شيئاً الا خان الله ورسوله

وخان نفسه وشيخه وربما مات بدائه مع تلبسه بصورة النفاق حال حياته . فانه كان يظهر للناس خلاف ما هو عليه بالباطن.»

وهل مثل هذا التصريح بالخواطر القبيحة ، والشهوات الغالبة ، وإفضاء المريد الى شيخه باسرار النفس الا ضرب من الاقرار بالذنوب عند النصارى المشهور بالاعتراف بالخطايا بين يدي الكاهن للاستغفار عنها !

وإن لم يكنها ، او تكنه ، فإنه اخوها غذتها أمه بلبانها

الفِرَق والبِدَع ومجالس اهل الكلام

في بغداد في القرن الرابع للهجرة

لا نعلم ان احدًا من مؤلفي الاسلام تعرض لتدوين اخبار الشِيَع والبِدَع ، في عهد الخلفاء العباسيين. واشار الى شيء من احوالهم وعلائقهم ، او وصف احدى مناظراتهم لاهل السنة والذمة في العقائد واصول الدين. وجلّ ما انتهى الينا من الكلام عليهم امثال كتب « الملل والنحل » للشهرستاني ، وابن حزم؛ « والفرق بين الفِرَق » لعبد القادر بن ابي منصور البغدادي . وهي في الغالب مقتصرة على شرح اصول المذاهب ، ونسبتها ، ونشأتها ، بغاية الايجاز . وليس فيها اقل إلماع الى مجالس اهل الكلام من زعماء الاديان ، وطرائق مجادلاتهم في الاحتجاج والاقناع.

وقد نبه المؤرخون على ما كان لمذاهب الخوارج والمبتدعة من انتشار الدعوة والشيوع في كل الاقطار والمدن الاسلامية. ولا سيما في العراق ، ومصر ، والشام. وشرحوا ما كان للمعتزلة منهم من الإغراب والغلوّ في الآراء. وهو ما لا بد لتعليله من الوقوف على منشأ اصحاب هذه الفرق ، واستثبات انساب الموالي منهم وابناء الإماء ، لمعرفة مقدار تأثير اديان الأمهات الاجنبيات في ثقافة الاولاد. فضلًا عن عقائد الآباء والاجداد من الاعاجم ، قبل انتحالهم المذهب الاسلامي. وربما يصلح ان يُتخذ شاهدًا على هذا التأثير ما ذهب اليه احمد بن حائط ، زعيم الفرقة الحائطية ، من ان للخلق الربين احدهما خالق وهو الاله القديم ؛

والآخر مخلوق وهو عيسى بن مريم. وان المسيح ابن الله. وانه هو الذي يحاسب الخلق في الآخرة. وانه هو المعني بقول القرآن: «هل ينظرون الا ان يأتيهم الله في ظلل الغمام». وان معنى قول محمد: «انكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر» اراد به عيسى. واغرب ما هنالك طعنه على محمد من اجل تعدد زواجه، وقوله ان ابا ذرّ الغفاري أنسك وازهد منه[1]. ولا يخفى ما في هذه الاقوال كلها من مسحة النصرانية. فلا يبعد ان تكون ام احمد بن حائط من سبايا الروم. وقد كانت وقتئذ الرغبة في الجواري الروميات شديدة منذ عهد الامويين. ولذلك قال الخليفة عبد الملك بن مروان: «من اراد الخدمة فعليه بالروميات»[2]. فلم تكن تخلو منهنّ طبقة من طبقات الامة حتى دور الخلافة في بغداد والقاهرة. وقد شهد الجاحظ ان اهل الشام في زمانه كان اشهى النساء اليهم الروميات وبنات الروميات[3]. واذا صحّ ان بعضاً منهنّ اخترن الاسلام طوعاً ام قسراً، فان اكثرهنّ بقين على نصرانيتهنّ حتى في قصور الخلافة. وقد اوردنا الشواهد على ذلك في كتابنا «الصليب في الاسلام» (ص ٧٤) فليراجع. ومن هنا يُستدلّ على مقدار ما احدثه هذ الاختلاط والاغتراب في الزواج من التأثير في عقائد البدع الاسلامية.

ومع تكفير اهل السنة لامثال هذه الفرق المعتزلية، كان اصحابها آمنين في بغداد، يناظرون، ويؤلفون، ويتصدرون في الحلقات والمجالس، دون تكتم او تقية شديدة من السلطان. ولهم انصار ومريدون يظاهرونهم على بث دعوتهم في كل الامصار. ولذلك تعددت شيعهم في مصر والشام. وقامت لهم غير دولة في حلب خصوصاً. ولما قدم ابن جُبير الاندلسي وطاف الحجاز ومصر والشام في اواخر القرن السادس للهجرة، اشتدّ إنكاره لكثرة ما لقيهُ فيها من الملل والنحل، وقال متعصباً لوطنه:

«ليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد انه لا إسلام الا ببلاد المغرب

---

١) الخطط للمقريزي، مطبعة النيل، ج ٤: ١٦٧

٢) تحفة العروس ونزهة النفوس للتيجاني، ص ٤٢

٣) فخر السودان على البيضان للجاحظ، ليدن ١٩٠٣، ص ٢٩

لانها على جادّة واضحة لا بُنيّات لها. وما سوى ذلك مما بهذه الجهات المشرقية فاهواء وبِدَع. وفرق ضالّة وشِيَع. الا من عصم الله عزّ وجلّ من اهلها.»[1]

واعظم من ذلك قوله عن دمشق:

« وللشيعة في هذه البلاد امور عجيبة. وهم اكثر من السنيين. وقد عمّوا البلاد بمذاهبهم. وهم فرق شتى. منهم الرافضة وهم السبأيون. ومنهم الامامية والزيدية. وهم يقولون بالتفضيل خاصة. ومنهم الاسماعيلية والنصيرية. وهم كفرة فانهم يزعمون الالهية لعلي... ومنهم الغرابية وهم يقولون ان عليًا كان اشبه بالنبي من الغراب بالغراب... الى فرق كثيرة يضيق عنهم الاحصاء. وقد اضلّهم الله واضلّ بهم كثيرًا من خلقه.»[2]

واذا تذكرنا ان هذه الاسطر خُطّت بعد وفاة السلطان نورالدين، وفي ايام السلطان صلاح الدين، وهما اكبر حُماة السنّة في الشام، ادركنا ما في شهادة ابن جبير من الخطر والشأن لاثبات تغلّب الشيع في زمانهما حتى في حاضرة المملكة نفسها.

وقد نبّه المؤرخون على انتشار البدع قبلها. وخصوا بالذكر سنة ٣٧٢(٩٨٢) والذهبي في تاريخها فصل ممتع في كتابه « تاريخ الاسلام » نقل فيه حديثًا لبعض الاندلسيين ممن زار بغداد ووصف مجالس الكلام فيها وصفًا لاغناله الا النقاء يُشير اليه أحد بعد. وهو حريّ ان توضع عليه اليد لمكانته في وصف ما كان بين رؤساء المذاهب في بغداد من المجاملة والاعتبار. وما كان عليه جميعهم من الادب الباهر، وسموّ الفكر، والتسامح، وقلة التعصب، في حاضرة الخلافة نفسها. قال الذهبي في حوادث سنة ٣٧٢:

« في هذا الزمان كانت الاهواء والبدع فاشية بمثل بغداد ومصر من الرفض والاعتزال. فانّا لله وانا اليه راجعون.

« ذكر الحميدي في ترجمة ابي عمر احمد بن محمد بن سعدي الاندلسي انقلبه طائفة كبرى. قال (باسناده):

---

١) رحلة ابن جُبير، ليدن، ص ٧٨

٢) « « « ص ٢٨٠

« سمعت ابا محمد عبدالله بن ابي زيد الفقيه يسأل ابا عمر احمد بن سعدي المالكي عند وصوله الى القيروان من بلاد المشرق. فقال: هل حضرت مجالس اهل الكلام. قال: نعم مرتين ولم أُعد اليها. قال: ولِمَ. فقال: اما اول مجلس حضرته فرأيت مجلساً قد جمع الفرق من السنة والبدعة والكفار واليهود والنصارى والدهرية والمجوس. ولكل فرقة رئيس يتكلم ويجادل عن مذهبه. فاذا جاء رئيس قاموا كلهم له على اقدامهم حتى يجلس. فاذا تكاملوا قال قائل من الكفار: قد اجتمعتم للمناظرة فلا يحتجّ احد بكتابه ولا بنبيّه. فاننا لا نصدق بذلك ولا نعتد به. وانما نتناظر بالعقل والقياس. فيقولون: نعم. ولما سمعت ذلك لم أُعد. ثم قيل لي هذا مجلس آخر للكلام. فذهبت اليه فوجدتهم على مثل سيرة اصحابهم. فقطعت مجالس اهل الكلام. »[1]

وهذا الفصل جدير باسترعاء نظر كل الشرقيين، وهو شاهد بقصور معرفتنا بحقيقة آداب العصور السالفة. وإخلال المؤرخين والكتاب في ما مثاره لنا من تاريخ المذاهب والاديان ووصف الحضارة الشرقية.

---

١) جزء من تاريخ الاسلام. خزانة برتش موزيوم Add. 48, f° 13 a